﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 68]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا قال يعقوبُ: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾، صدَّقه اللّه في ذلك فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: وما كان ذلك التّفرّقُ يُغني عنهم منَ اللّه من شيءٍ[1].

تَـصـديـقُ الـلـه ليعقوبَ في بيانِه لأبنائه، وامتداحُ عـلْـمِـه تـأكـيـدًا للتّوكُّلِ الحقِّ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَاجَةً﴾: أصلُ (حوج) هو الاضْطِرارُ إلى الشَّيءِ، والحاجةُ واحدةُ الحاجات[2]، وأصلُها حائِجَة، حذفوا منها الياء، فلمّا جمعوها رَدُّوا إليها ما حذفوا منها فقالوا: حَوائِج، والحَوْجُ: الطَّلَبُ، والتَحَوُّجُ: طَلَبُ الحاجَةِ بعد الحاجَةِ، وتَحَوَّجَ إلى الشَّيءِ: احْتاجَ إليه وأَرادَه[3]، والحَوْجُ: السَّلامَةُ، يُقال للعاثِر: حَوْجًا لكَ، أي: سَلامَةً، والحُوجُ: الفقر، والحاجَة: المأربةُ، والحاجَة: القُصورُ عنِ المَبْلَغِ المطلوبِ[4]. ومعنى ﴿حَاجَةً﴾ في الآية: إربًا ليعقوب[5]، وهو أمرٌ رغبَ به، وهو حرصُه على تنبيههم للأخطار الّتي تَعرِضُ لأمثالِهم[6]، والخاطرُ الّذي خطرَ على فكره، وإرادتُه أنْ يكونَ دخولُهم من أبوابٍ متفرّقةٍ شفقةً عليهم، وخوفُه منَ العين تصيبُهم[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/484.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوج).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حوج).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوج).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/298.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3842.

2) ﴿قَضَىٰهَا﴾: أصلُ (قضي) يدلُّ على إحْكامِ أَمْرٍ وإتْقانِه وإنْفاذِهِ لجهتِه، والقضاءُ: الحُكمُ، ولذلك سُمِّيَ القاضِي قاضِيًا؛ لأنّه يُحْكِمُ الأَحْكامَ ويُنْفذها[1]، ويأتي القضاءُ بمعنى الحتْمِ والأمرِ، كقوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23] أي: حتّم وأمرَ، والقضاءُ في اللّغة يرجعُ إلى معنى انقطاعِ الشّيءِ وتمامِه، يُقال قضى وَطَرَه: أتمّهُ ونالهُ وبلغهُ، وقضى عليه عهدًا: أوصاهُ وأنفذه[2]، ومعنى ﴿قَضَىٰهَا﴾ في الآية: أنفذَها[3]، وأظْهرَها ووصّاهُم بها دفعًا للخاطرة[4].

3) ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾: العِلْمُ: نَقيضُ الجَهْلِ، وتَعَلَّمْتُ الشَّيءَ إذا أَخَذْتُ عِلْمَهُ[5]، وعَلِمْتُ الشّيءَ: عَرَفْتُه، وعَلِمَ بِالشَّيْءِ: شَعَرَ، وعَلِمَ الأَمرَ وتَعَلَّمَه: أَتقنَه، والعالمُ: الّذي يَعْمَلُ بما يَعْلَمُ[6]، والعِلْمُ: إدراكُ الشّيءِ بحقيقتِه، وتّعليمُ اللّه يمكنُ أنْ يكونَ إلقاءً في الرّوع، فإنّ للّه تعالى علمًا يخصُّ به أولياءَه[7]، والعِلْمُ هو الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابتُ المُطابِقُ للواقِع[8]، ومعنى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ في الآية: أيْ لَذو علمٍ لتعليمِنا إيّاه، أو معناه وإنّه لذو حفْظٍ لِما استودعْنا صدرَه منَ العلم، أو لَحافظٌ لوصيّتنا، أو إنّه لَعاملٌ بما علم، أو لَمتيقِّنٌ بوعدنا[9]، أو لِما علّمناه منَ الحكمةِ والنّبوّة[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّن سُبحانه أنّ الأبناءَ قدِ امتثلوا أمرَ أبيهم، وأنّهم حين دخلوا

خاطرٌ شعرَ به يعقوبُ جعلهُ يُوصي أبناءَه، موقِنًا بنفاذ إرادة الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (قضي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/293.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(7) الرّاغب، المُفردات: (علم).
(8) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعريف، ص: 246.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 16/167 - 168، والماورديّ، النُّكت والعيون: 3/60.
(10) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3842.

منَ الأبوابِ المُتفرّقةِ الّتي أمرَهم أبوهم بالدّخول منها ما كان هذا الدّخولُ يدفعُ عنهم شيئًا قدّره الله عليهم، ولكنّ الّذي حملَ يعقوبَ على أمرهم بذلك رغبةٌ خطرتْ في نفسه أظهرَها ووصّاهم بها، ولم يستطع إخفاءَها لشِدّةِ حبّه لهم، مع اعتقادِه بأنّ كلَّ شيءٍ بقضاءِ الله وقدرِه، وهذا لعلْمِه وحُسنِ تدبيره؛ فإنّه لذو علمٍ عظيمٍ للشّيءِ الّذي علّمه الله إيّاه عن طريقِ الوحي، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ما يعلمُه يعقوبُ من أنّ الأخذَ بالأسبابِ لا يتنافى مع التّوكّلِ على الله، أو لا يعلمون ما أعطاه الله لأنبيائِه وأصفيائِه منَ العلمِ والمعرفةِ وحُسنِ التّأتّي للأمور[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ اعتراضيّةٌ، والجملةُ معترضةٌ[2]؛ غرضُها تأكيدُ أنَّ التّقديرَ غالبٌ للتّدبير، والإنسانُ وديعةُ غَيْبٍ، وأسيرُ قَدَرٍ، ومع ذلك يجبُ عليه الأخذُ بالأسباب.

الجمعُ بين الأخذِ بالأسبابِ والتّوكّل، حقيقةٌ أكّدتْها الجملةُ الاعتراضيّةُ

دلالة (لَمَّا) في قوله ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

﴿وَلَمَّا﴾ شرطيّةٌ، وهي ظرفٌ للزّمانِ الماضي بمعنى حينَ؛ لأنّ الجُملتَيْن بعدَها فعْلُهما ماضٍ، وقد أتى الشّرطُ فيها للدّلالة على الزّمن الماضي بما يفيدُ تحقُّقَ وقوعِ هذا الحدثِ بطرفَيْه؛ لأنّ الآيةَ نزلتْ بعدَه، وقدِ اختُلف في جوابها، فقيل: هو قولُه: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي﴾، والمعنى: أنَّ دخولَهم من أبوابٍ متفرّقةٍ لا يدفعُ عنهم شيئًا ممّا قدّره الله، بلِ الدّخولُ مُتفرّقين كالدّخول مُجتمعين، بالنّسبةِ لقضاءِ الله، وعلى هذا القولِ الأوّلِ يكونُ في تقييد الجملةِ الخبريّةِ: ﴿مَّا

في التّقْييدِ بـ (لَمَّا) إشارةٌ إلى أنّ قضاءَ الله، كان يترصّدُهم عند تلك الأبوابِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/393.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.

كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ بظرْفِ الدّخول ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ رغْمَ "أنّ عدمَ الإغناءِ بالفعلِ إنّما يتحقّقُ عند نزولِ المحذورِ لا وقتَ الدّخول"[1] يكونُ في تقييدها دَلالةٌ على أنّ المُتحقّقَ هو عدمُ كونِ الدّخولِ مُغنيًا فيما سيأتي، وليس المُرادُ بيانَ سببيّة الدّخول المذكورِ، إضافةً إلى أنّ فيه إشارةً إلى أنّ قضاءَ الله كان يترصّدُهم على تلك الأبواب المُتفرّقةِ الّتي دخلوا منها، كما أمرَهم أبوهم[2]؛ هذا إذا كان الجوابُ محذوفًا، والتّقديرُ: ولمّا دخلوا من حيث أمرَهم سَلِموا ممّا كان يخافُه عليهم[3]، ويكونُ في هذا التّقييدِ إشارةٌ إلى أنّ سلامةَ الله لهم منَ الإحاطة بهم هي الّتي كانت تترصّدُهم، وأمّا إذا كان الجوابُ قولَه: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ وهو جوابُ ﴿وَلَمَّا﴾ الثّانيةِ أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾؛ فإنّ المقصود بدخول المدينة الدّخولُ على يوسف، والمقصودُ به إيواءُ الأخ، فـ (لَمّا) الثّانيةُ مرتّبةٌ على (لَمّا) الأولى، فصلحَ أنْ يكون جوابُهما واحدًا[4]. وعلى القول الثّاني يكونُ في تقييدِ الجملةِ الخبريّةِ بظرف الدّخولِ ﴿وَلَمَّا﴾ إشارةٌ إلى أنّ دخولَهم على يوسفَ ﷺ كان عَقِبَ دخولِهم منَ الأبواب، وأنّ يوسفَ كان يترصّدُهم فبمجرّدِ دخولِهم عليه آوى إليه أخاه بنيامين؛ ليكونَ قدرُ الله في أنْ يضُمَّ إليه أخاه.

إيجازُ الحذْفِ في: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

أغنتْ جملةُ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾، عن جُملٍ كثيرةٍ، وهي أنّهمُ ارتحلوا ودخلوا من حيثُ أمرَهم أبوهم، ولمّا دخلوا من حيث أمرَهم سَلِموا ممّا كان يخافُه عليهم، وما كان دخولُهم من حيث أمرَهم أبوهم يُغني عنهم منَ الله من شيءٍ، لو قدّر الله أنْ

الإيجازُ غرضُه التّركيزُ على المَشاهدِ البارزةِ في القصّةِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/20.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين، ص: 900.

يُحاطَ بهم، فالكلامُ إيجازٌ[1] غرضُهُ التّركيزُ على المَشاهدِ البارزةِ في القصّة، وتركُ ما بينَهما من فجَواتٍ تدلُّ عليها روابطُ بَدهيّةٌ؛ ليُفْسَحَ المجال للخيال حتّى يملأَها بما يُعطي قيمةً جماليّةً للقصّة، كانتْ ستضعفُ لو شُغل الذّهنُ بعرضِ تلك الفجَوات[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿دَخَلُواْ﴾:

تحقّقُ امْتِثالِهم لأمرِ أبيهم، إشارةٌ إلى تغيُّرِهم، وتحسُّنِ حالِهم

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بالماضي في قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ للدّلالة على أنّ فعلَ الدّخولِ من حيث أمرَهم يعقوبُ قد تحقّقَ منهم، وانقضتْ مدّتُه، وحانَ وقتُ الدّخولِ على يوسفَ عليه السلام، وهذا فيه إشارةٌ إلى امتثالِهم وطاعتِهم لأمرِ أبيهم، بما يدلُّ على صلاحِ حالِهم.

دَلالةُ التّعبيرِ بالجارِّ قبلَ الظّرفِ ﴿مِنْ حَيْثُ﴾:

في (مِـنْ) تَوكيدٌ لدقّةِ التزامِهم بتنفيذِ أمرِ أبيهم يعقوبَ عليه السلام

أتى البيانُ الإلهيُّ بحرف الجرِّ ﴿مِنْ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ تأكيدًا لالتزامِهم الدّخولَ منَ الجهاتِ الّتي أمرَهم أبوهم أنْ يدخلوا منها، بما يُشيرُ إلى تحسُّنِ حالِهم، والتزامِهم بدقّةِ تنفيذِ أمرِ أبيهم، وحرْصِهم على حفظِ أخيهم بِنيامين.

غرَضُ تَقييدِ الفعْلِ بالظّرفِ في الآية:

دخـولُ الأبنـاءِ مـنَ الـجـهـات الّتي أمرَهم بها أبـوهـم، دليـلٌ على التزامِهم

قيّد البيانُ الإلهيُّ الفعلَ ﴿أَمَرَهُمْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ﴾، بالظّرف ﴿حَيْثُ﴾؛ لأنّها تدلُّ على الجهة؛ أيْ: لَمّا دخلوا منَ الجهاتِ الّتي أمرَهم أبوهم بالدّخولِ منها، فالجملةُ الّتي تُضافُ إليها حيثُ هي الّتي تُبيّنُ المُرادَ منَ الجهة[3]، وهذا فيه إشارةٌ إلى علمِ يعقوبَ بالدّيار المصريّة، وإلى حرْصِهِ على الأخذِ بالأسبابِ على أكملِ وجْهٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(2) البغا، الواضح في علوم القرآن، ص: 195.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.

وإلى دقّة التزامِ أبنائِه وصيَّةَ أبيهم ممَّا يُظهرُ لنا حُسْنَ طاعتِهم وتغيّرَ حالِهم نحوَ الأحسن.

غرَضُ تعريفِ المُسنَدِ إليه ﴿أَبُوهُم﴾ بالإضافةِ:

تنبّؤٌ بتغيّرِ حالِ أبناءِ يعقوبَ، وحُسنِ علاقتِهم بأبيهم

عرّف البيانُ الإلهيُّ المُسنَدَ إليه (أبو) بالإضافة، في قوله تعالى: ﴿أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ للإشارةِ إلى تشريف المضافِ إليه، وهم أبناؤه؛ لأنّهم استجابوا لأمرِه ونفّذوه بحذافيره، وباستجابتِهم هذه استَحقّوا هذا التّشريفَ بإضافتِهم إلى نبيِّ اللّه يعقوبَ ﷺ، وهذا التّشريفُ يدلُّ على تغيُّرِ حالِهم، وحُسنِ علاقتِهم بأبيهم ودِفئِها، وعلى رِقّةِ يعقوبَ وحبِّه لأبنائه، وأنّ نُصحَه كان بدافعِ الخوفِ والحبّ لهم جميعًا لا لِبنيامين فقط.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ(كانَ) المَنفيّةِ ﴿مَّا كَانَ﴾:

عدمُ ردِّ الأسبابِ لقضاءِ اللهِ، رغمَ وجوبِ الأخذِ بها، حكمٌ ثابتٌ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظةِ ﴿كَانَ﴾ بصيغة الماضي المَنفيِّ في قوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ على نفْيِ الفعل مباشرةً، فلم يَقُلْ: (ما أغنى دخولُهم عنهم شيئًا منَ اللّه)؛ لإفادةِ استمرارِ نفْيِ أنْ يردَّ الأخذُ بالأسباب قدرَ اللّه تعالى؛ لأنّ ﴿كَانَ﴾ عندما سُبقت بـ ﴿مَّا﴾ النّافيةِ دلّتْ على الزّمن الماضي القريبِ منَ الحال، ثمّ لمّا جاء بعدَها الفعلُ بصيغة المضارع أفادتِ المستقبلَ؛ أي: الاستمرارَ، أضفْ إلى ذلك أنّ الجملةَ الاسميّةَ تفيدُ الدّوام والثّبوتَ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ، في قوله ﴿يُغْنِى﴾:

عدمُ إغناءِ الأخذِ بالأسبابِ عن قدَرِ اللهِ المتجدّدِ الغلّابِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغة الفعلِ المضارعِ، في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؛ لإفادة التّصويرِ والحركةِ والتّجدّدِ؛ أيْ: إنّ عدمَ إغناءِ الأخذِ بالأسبابِ المعتادةِ الظّاهرةِ عن قدَرِ اللّه سبحانه كان أمرًا مُتجدّدًا في رحلة أبناءِ يعقوبَ؛ إذ إنّ دخولَهم كان من أبواب متفرّقةٍ سواءٌ أكانت أبوابَ المدينة أم غيرها، كما أنّه أمرٌ مُتجدّدٌ في حياةِ الإنسان يعيشُه ويُعاينُه في

تفاصيل حياته، وهذا يساعدُ في تصويرِ مشاهدِ ذلك في مُخيّلته؛ لِما لها من أمثلةٍ كثيرةٍ في واقع حياته. ولا بأسَ من أنْ نشيرَ إلى أنّ الجُملَ الفعليّةَ في سورة يوسفَ قد بلغ مجموعها حوالي ثلاثمائة وواحدٍ وخمسين جُملةً؛ أيْ: زادت على الجُملِ الاسميّةِ الّتي بلغت مائة وثلاثًا وثلاثين، وذلك تناسقًا مع طبيعة قصّةِ يوسفَ المليئةِ بالحركةِ والمحطّاتِ المتنوّعةِ من حَسَدٍ ومحاولةِ قتْلٍ وفَتنٍ وافتراءاتٍ وإغراءاتٍ وغيرِها، وتصويرًا لكلِّ ذلك.

غرَضُ تقديمِ شبْهِ الجُملة على الفاعلِ:

مـدارُ الحديثِ عـلى أبـنـاءِ يـعـقـوبَ، والتّشويقِ لِما سَيَحلُّ بهم

قدّم البيانُ القرآنيُّ شبْهَ الجملةِ ﴿عَنْهُم﴾ على الفاعلِ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ (عند مَن عدّه فاعلًا لا مفعول به) في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، ولم يَقُل: (ما كان يُغني شيءٌ عنهم منَ الله)؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وهو أبناءُ يعقوبَ؛ إذِ التّركيزُ في سياقِ الكلام عليهم وعلى ما سيُصيبُهم من قدرِ الله منَ الاتّهام بالسّرقة، وأخذِ بِنيامين منهم وعودَتِهم بدونه، رغْمَ كلِّ ما نصحَهم به يعقوبُ، وما اتّخذوه سلامةً لهم ولأخيهم بِنيامين كان تطبيقًا للعهدِ الّذي قطعَه عليهم أبوهم، وفي الوقت نفسه أخّرَ الفاعلَ، وهو ما اتّخذوه من أسبابٍ، تشويقًا للنّفس إلى معرفته.

دَلالةُ (من) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّـهِ﴾:

التّقديرُ أقوَى مِـنَ التّدبيرِ، والإنسانُ وَديعةُ غَـيْـبٍ، وأسـيرُ قَدَرِ الله

﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، متعلّقةٌ بـ ﴿يُغْنِي﴾، وهي ابتدائيّةٌ، والمعنى: ما كانَ ذلك الدّخولُ يُغْنِي عَنْهُمْ من جهتِه سُبحانه شيئًا[1]، أو: ما كان شيءٌ يُغني عنهم من جهتِه سُبحانه.

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الجلالة ﴿ٱللَّـهِ﴾:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ بالاسْمِ الأعظمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ غيرِه منَ الأسماءِ الحُسنى في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/20.

اسـمُ الجـلالـةِ يُربّي في النُّفوسِ تعْظيمَه تعالى ومهابتَه

ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ لإفادةِ المُبالغةِ في تقريرِ عظَمةِ أمرِ الله سُبحانه، وأنّ تدبيرَ العبدِ الضّعيفِ لا يؤثّرُ في تقديرِ المَلكِ القويّ الأعلى سُبحانه[1]، ولإفادةِ تربيّةِ المهابةِ في النّفوس تجاهَ أقدارِ الله بما يُحقّقُ الاستسلامَ والخضوعَ لها عند العبدِ.

دَلالةُ (مِن) في قوله ﴿مِن شَيْءٍ﴾:

قـضـاؤُه تعـالى نافذٌ، لا يدفعُهُ أيُّ تدبيرٍ

أفادَ التّعبيرُ بـ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ التّوكيدَ؛ لإمكانيةِ الاستغناءِ عنها، والتّوكيدُ حاصلٌ بذكرِها سواءٌ كان التّركيبُ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يحتملُ النَّصبَ بالمفعوليّة، أم الرّفعَ بالفاعليّة، أمّا الأوّلُ: فهو كقوله: ما رأيتُ من أحدٍ، فكذا هاهنا تقديرُ الآية: تفرّقُهم في الدّخولِ ما كان يُغني من قضاءِ الله شيئًا؛ أيّ: ذلك التّفرّقُ ما كان يُخرجُ شيئًا من تحتِ قضاءِ الله تعالى، وأمّا الثّاني: فكقولِك: ما جاءني من أحد، وتقديرُه: ما جاءني أحدٌ، فكذا هاهنا التّقديرُ: ما كان يُغني عنهم منَ الله شيءٌ مع قضائه[2].

الغرَضُ من تنكيرِ لفظِ ﴿شَيْءٍ﴾:

قَدَرُ الله لا يردُّه أيُّ سببٍ منَ الأسبابِ، وكلُّ شيءٍ عندَه بقدَرٍ

الغرَضُ من تنكيرِ لفظةِ ﴿شَيْءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ العمومُ؛ لكونِها نكرةً في سياقِ النّفي، وسواءٌ في ذلك كونُه في موضعِ الفاعليّة أوِ المفعوليّة، والمعنى: ما كان يُغني عنهم أيُّ شيءٍ عن قَدَرِ الله، أو ما كان دخولُهم مُفرَّقين يُغني عنهم من جهةِ الله تعالى شيئًا.

دَلالةُ الاستثناءِ في قوله ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾:

نُـصـحُ يعقوب أبناءه بالدُّخول مُتفرّقين لحاجة في نفسه لا تردُّ القضاء

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ يحتملُ وجهَيْن:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/162.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/484.

الأوّلُ: استثناءٌ مُنقطعٌ؛ لأنَّ الحاجةَ الّتي في نفسِ يعقوبَ ﷺ ليستْ بعضًا مِنَ الشَّيءِ المَنْفِيِّ إغناؤه عنهم منَ اللّه، والمعنى: ما يُغني دخولُهم مُتفرّقين عنهم من قدرِ اللّه شيئًا، لكنَّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها[1]، يعني أنَّ الدّخولَ على صفةِ التَّفرّق قضاءُ حاجةٍ في نفسِ يعقوبَ قضاها[2]، وهي دفعُ العينِ عنهم[3]، أوِ الأذى والكيدِ بهم، وفي هذا الاستثناء المنقطعِ إشارةٌ إلى أنَّ يعقوبَ يعلمُ هذا حقَّ العلم، وأنّ نصحَه وتحذيرَه لا يُغني عنهم من أمرِ اللّه وقضائِه شيئًا، وهذا ما أشارَ إليه يعقوبُ بقوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾، ولكنّها حاجةٌ في نفسِ يعقوبَ قضاها، وكان واجبًا عليه أنْ يقضيَها؛ ذلك لأنّه يجبُ على المؤمنِ أن يُدبّرَ لنفسِه، ثمّ يَمضي أمرُه ذلك على الوجه الّذي قدّر اللّه[4].

الثّاني: استثناءٌ متّصلٌ، وقد جوّزوه على أنّه من باب: (ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم)؛ فالمعنى: ما أغنى عنهم ما وصّاهم به أبوهم شيئًا إلّا شفقتُه الّتي في نفسه، ومنَ الضّرورة أنّ شفقةَ الأبِ مع قدَرِ اللّه تعالى كالهباء، فإذن ما أغنَى عنهم شيئًا أصلًا[5]، أو أنْ يكونَ التّقديرُ: ما كان يُغْني عنهم لشيءٍ منَ الأشياء إلّا لأجلِ حاجةٍ كانت في نفسِ يعقوبَ، وفاعل ﴿يُغۡنِي﴾ ضميرُ التّفرّقِ المدلولِ عليه منَ الكلام المُتقدِّم، وبهذا التّقديرِ تكونُ ﴿حَاجَةً﴾ مفعولًا لأجله[6].

الغرَضُ من تنكيرِ لفظِ ﴿حَاجَةً﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿حَاجَةً﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾؛ لإفادةِ معنى الإبهامِ والتّفخيمِ لشأنِ

إبهامُ الحاجة، يفيدُ التّشويقَ لمعرفتِها، والتّفخيمَ لشأنِها

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/484.
(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين، ص: 900.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/22.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(6) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 6/525.

الحاجة، وهذا الإبهامُ جعلَ المفسّرين يذكرون في بيانِ معنى تلك الحاجة وجوهًا:

أحدُها: حرْصُ يعقوبَ على تنبيه أولاده للأخطارِ الّتي تعرِضُ لأمثالهم في مثلِ هذه الرّحلةِ إذا دخلوا من بابٍ واحدٍ.

وثانيها: تعليمُهمُ الأخذَ بالأسباب مع التّوكُّل على اللّه[1].

وثالثُها: خوفُه عليهم من إصابةِ العين.

ورابعُها: خوفُه عليهم من حسَدِ أهلِ مصرَ.

وخامسُها: خوفُه عليهم من أنْ يقصدَهم ملكُ مصرَ بشرٍّ.

وسادسُها: خوفُه عليهم من ألّا يَرجعوا إليه.

وكلُّ هذه الوجوه متقاربةٌ[2]، ولا تنافيَ بينَها، ويُحملُ المعنى عليها جميعًا عند المحقّقين، ويكونُ ذلك أبلغَ في الإعجازِ والفصاحةِ[3]؛ إذ تدلُّ على ثَراءِ المعنى للّفظةِ الواحدةِ.

دلالة حرف الجرّ في: ﴿فِي نَفْسِ﴾:

شفقةٌ وخوفٌ تمكّنا في نفسِ يعقوبَ فأظهرَهما وصيّةً لأبنائِه

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الّذي يُفيدُ الظّرفيّةَ؛ إشارةً منه إلى هذه الحاجةَ؛ وهي الشّفقةُ والرّحمةُ بأبنائه وحرصه على تنبيههم للأخطارِ الّتي تَعرضُ لأمثالِهم في مثلِ هذه الرّحلةِ والاحترازِ بما يُحقّقُ لهمُ الحمايةَ، ومن ذلك الدّخولُ من أبوابٍ متفرّقةٍ أخذًا بالأسبابِ الّتي كانت مُتمكّنةً ومُستقرّةً في نفسِ نبيّ اللّه يعقوبَ الّذي يحملُ العلْمَ الّذي يُوجبُ على المؤمنِ أنْ يأخذَ بالأسباب مع التّوكّل على مُسبّبها سُبحانه، ولذلك امتدحهُ اللّه على فعْلِه هذا بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/484.
(3) الذّهبيّ، التّفسير والمُفسّرون: 1/199.

سِرُّ التّصريحِ بالاسمِ في ﴿نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾:

الشّفقةُ والرّقّةُ والرّحمةُ، من أوصافِ يعقوبَ عليه السلام

صرّح البيانُ الإلهيُّ باسْمِ يعقوبَ عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾، ولم يَقُلْ: (إلّا حاجة في نفسِه قضاها)، إشعارًا بالتّعطّفِ والشّفقةِ والتّرحُّمِ الّذي اتّصفت به نفسُ يعقوبَ تجاهَ أبنائه، وتجاهَ أُمّته؛ لأنّه عليه السلام قد اشتُهرَ بالحزنِ والرّقّة[1]، وخاصّةً أنّ الحاجةَ في اللّغة، تَعني الفقرَ إلى الشّيءِ مع محبّتِه[2]، وهي الأمرُ المرغوبُ فيه، وسُمّي حاجةً؛ لأنّه محتاجٌ إليه[3]، وأنّها في الآية تعني شفقةَ يعقوبَ وحَرازتَه الّتي أخذتْ وجوهًا عدّةً، من أنْ يُعاني أبناؤه في رحلتِهم[4].

دلالة مَوقعُ قولِه: ﴿قَضَىٰهَا﴾:

أظهرَ يعقوبُ الحاجةَ، ليُحقّقَ الطُّمأنينةَ لقلبِه، والرّاحةَ لنفسِه

جملةُ ﴿قَضَىٰهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، صفةُ ﴿حَاجَةً﴾، والمعنى: إلّا حاجةً في نفسِ يعقوبَ أظهرَها ووصّاهُم بها دفعًا لِلْخَطْرَةِ غيرَ مُعتقدٍ أنَّ لِلتَّدْبيرِ تَأْثيرًا في تَغييرِ التَّقْديرِ[5]، وتأتي الصّفةُ هنا لتشيرَ إلى شفقةِ يعقوبَ بأبنائه، وحرْصِه عليهم، وتنفيذِه للعلْمِ الّذي علّمه اللّه إيّاه بأنْ يأخذَ بالأسباب، وذلك أنّه لم يُبقِ هذه الحاجةَ حبيسةَ نفسِه، ولم يدَّخِرْها عنهم، وإنّما أظهرَها ليطمئنَّ قلْبُه بأنّه لم يترُكْ شيئًا يظُنُّه نافعًا لهم إلّا أبلَغَه إليهم؛ شفَقَةً منه، وحِرصًا على تنْبيههم للأخطارِ الّتي قد تعرِضُ لهم، وتعْليمِهم الأخذَ بالأسبابِ مع التّوكُّلِ على اللّه[6]. ويجوزُ أنْ تكُونَ خَبَرًا؛ لأنّ ﴿إِلَّا﴾ عندما تأتي بمعنى لكنَّ يكونُ لها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(2) الرّاغب، المُفردات: (حاج).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.

اسْمٌ وخبرٌ[1]، والتّقديرُ: ولكنّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها، ومن كلا الوجهَيْن تؤخذُ حُجّيّةُ الاحترازاتِ خشيةَ العينِ؛ لأنَّ يعقوبَ ﷺ نبيٌّ، وقد فَكَّرَ في هذا، واللّه سبحانه وإنْ كان قد بَيَّنَ أنَّ احترازَهم لم يُغْنِ عنهم شيئًا إلّا أنّه لم يُنْكِرْ وَصاةَ أبيهم بذلك، وقد قال النّبيُّ ﷺ: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابقَ القَدَرِ، سبقَتْه العينُ»[2]، هذا على القولِ بأنَّه خافَ عليهم مِن العينِ.

سِرُّ التّعبيرِ بلفظةِ ﴿قَضَىٰهَآ﴾:

وصيّةُ يعقوبَ لأبنائِه، أنفذها تامّةً حرْصًا منه على تبليغِهم كلَّ ما ينفعُهم

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ، بلفظِ (قضاها)، في قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَآ﴾؛ للدّلالةِ على حرْصِ يعقوبَ على إظهارِ ما أضمرَه في نفسه بتمامِه، لأنّ معنى القضاء في اللّغة الإنفاذُ[3] والحتمُ والأمرُ والإتمام[4]؛ أيْ إنّ نصيحتَه لأبنائه أدّاها لهم، ولم يدّخرْها عنهم؛ ليطمئنّ قلبُه بأنّه لم يتركْ شيئًا يظنُّه نافعًا لهم إلّا أبلغَه إليهم[5].

دَلالةُ الواوِ، في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾:

جمعَ يعقوبُ الحُسْنَيَيْن، فهو مُتوكّلٌ على الله تعالى وراسخٌ في العلمِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ تحتملُ معنيَيْن:

الأوّلُ: اعتراضيّةٌ، والجملةُ معترضةٌ بين جملةِ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ وبَيْنَ جُمْلَةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[6] غرضُها تأكيدُ ما قامَ به يعقوبُ منَ الأخذِ بالأسبابِ مع التّوكّلِ على اللّه سُبحانه، والثّناءُ عليه بالعلْمِ والتّدبيرِ، وأنّ ما أسْداهُ منَ النُّصحِ لهم هو منَ العلْمِ الّذي آتاه اللّه، وهو من علْمِ النّبوّةِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(2) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 1/621، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السّلام، باب الطّبّ والمرض والرّقى، برقم: (2188).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قضي).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.

الثّاني: حاليّةٌ[1]، والمعنى: حالَ كونِه لِما علّمناه عليمًا، وهو تأكيدٌ لمعنى العطاءِ الإلهيّ له في العلم.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ المؤكّدةِ:

تأكيدٌ على رسوخِ علْمِ يعقوبَ، لِما علّمَه ربُّه بالوحيِ والإلهامِ

اشتملَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ على عدّةِ مُؤكِّداتٍ، وهي: الجملةُ الاسميّةُ، الّتي تَدلُّ على الثّباتِ والقوّةِ، و(إنّ) واللّامُ المُزحلقةُ، وتنكيرُ عِلْمٍ وتعليلُه بالتّعليم المُسنَدِ إلى ضميرِ العظَمةِ[2]؛ مبالغة في التّأكيدِ على رسوخِ علْمِ يعقوبَ ﷺ وبصيرتِه بالأمورِ لِما علّمَه ربُّه بالوحيِ والإلهامِ، وفي هذه المبالغةِ أمورٌ:

الأوّلُ: الدّلالةُ على جلالةِ شأنِ يعقوبَ ﷺ، وعلوِّ مرتبةِ علْمِه وفخامتِه[3].

الثّاني: الإشارةُ إلى أنّ يعقوبَ يعلمُ هذه الحقيقةَ الّتي قرّرتْها الآيةُ الكريمةُ، وهي أنَّ قضاءَ اللّه نافذٌ لا مردَّ له، ولكنّ يعقوبَ مُطالَبٌ بأنْ يُعطيَ وجودَه حقَّه، من حيثُ هو إنسانٌ عاقلٌ مُريدٌ[4].

الثّالثُ: تَصريحٌ بأنّ يعقوبَ ﷺ قد عملَ بما علّمَه اللّه؛ لأنّ "العالِمَ هو الّذي يعملُ بما يعلمُ"[5].

سِرّ التّعريفِ بالإضافةِ، في قولِه: ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾:

في الإضافةِ ثناءٌ على يعقوبَ بالعلْمِ الفائقِ، لمطابقةِ قولِه مُعتقدَه

أضافَ البيانُ القرآنيُّ ﴿لَذُو﴾ إلى لفظة ﴿عِلْمٍ﴾ مُخبرًا بهذا التّركيبِ عن يعقوبَ ﷺ فقال: ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ ولم يَقُل: (صاحبُ علمٍ أو عالمٌ)؛ تشريفًا ليعقوبَ وثناءً عليه[6] بالعلْمِ والتّدبيرِ، وأنّ ما أسداهُ منَ النُّصحِ لأبنائِه هو منَ العلْمِ الّذي آتاه اللّه؛ وهو من علْمِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/25.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 7/21.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/22.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 6/299.

النّبوءةِ[1]، وذلك "لأنّ الوصفَ بـ (ذو) أبلغُ منَ الوصفِ بـ (صاحب) والإضافةَ بها أشرفُ"[2]، وفي تنكير ﴿عِلْمِ﴾، تفخيمٌ ليعقوبَ وعُلوِّ مرتبتِه في العلم وفخامة هذا العلم[3]، وتكثيرُه ليشملَ علومًا كثيرةً، ولذلك أطنبَ المُفسّرون في بيانِ المُرادِ بهذا العلم، فذكروا من معانيها: "معرفةٌ بالحُكْمَيْن؛ حُكمِ التّكليف، وحُكمِ التّقدير، واطّلاعٌ على الكونَيْن عظيمٌ"[4]، وذو حفْظٍ لِما استودعنا صدرَه منَ العلم[5]، ومراقبةٍ له، ولذو علْمٍ لفوائدِ ما علّمناه، وحسن آثارِه، وهو إشارةٌ إلى كونِه عاملًا بما علِمَه[6]، وعاملًا بما علمَ، ومُتيقّنًا بوعدنا، وحافظًا لوصيتنا[7].

تعليلُ مدحِ الله لعلْمِ يعقوبَ، إشارةٌ إلى وجوبِ الاقتداءِ به

دلالة حذفِ الجرِّ في: ﴿لِّمَا﴾:

حرفُ الجرِّ (اللّام)، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ للتّعليلِ[8]؛ أي: علّلتْ ما أكّده القرآنُ من رسوخِ علْمِ يعقوبَ بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾، والمعنى: إنّه لذو علْمٍ لتعليمنا إيّاه بالوحْيِ ونصْبِ الأدّلة، حيث لم يعتقدْ أنّ الحذرَ يدفعُ القدرَ حتّى يتبيّنَ الخللُ في رأيه عند تخلّفِ الأثرِ، أو حيث بتَّ القولَ بأنّه لا يُغني عنهم منَ اللّه تعالى شيئًا فكانت الحالُ كما قال[9]، وفي هذا إشارةٌ إلى وجوبِ الاقتداءِ بيعقوبَ ﷺ، في "الاحتياطِ في تعاطي الأسباب، مع اعتقاد أنّه لا أثرَ لها إلّا إنْ أمضاها الواحدُ القهّار"[10].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/231.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/163.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/168.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485.
(7) الماورديّ، النُّكت والعيون: 3/60.
(8) محمد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/42.
(9) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(10) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/163.

دلالة التّعبير بـ (لَمَا) في: ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾:

يتحدّد المعنى باعتبار الموصوليّةِ أوِ المصدريّةِ، لتأكيدِ أنّه وحيٌ

تحتملُ ﴿لِّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ معنيَيْن:

الأوّلُ: اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي، والهاءُ عائدةٌ إلى (ما)، والمعنى: وإنّه لذو علْمٍ للشّيءِ الّذي علّمناه، يعني: إنّا لما علّمناه شيئًا حصلَ له العلمُ بذلك الشَّيءِ[1]، وغرضُ التّعبير بالاسم الموصول هو الاهتمامُ بصِلتِه التّي هي مناطُ الحُكم ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾، والزّيادة في تقرير مضمونِها؛ أيْ: عبّرَ القرآنُ عن مضمونِ علمِ اللّه الّذي علّمه يعقوبَ بالموصوليّة؛ لِما في الصّلةِ منَ الإيماءِ إلى أنّ المذكورَ شيءٌ مُهمٌّ وعظيمٌ وهو خاصٌّ بيعقوبَ ﷺ.

الثّاني: مصدريّةٌ والهاء عائدةٌ إلى يعقوبَ، والتّقديرُ: وإنّه لذو علمٍ لتعليمنا إيّاه بالوحي[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى عِظمِ مصدرِ هذا العلْمِ لكونِه وحيًا منَ اللّه.

غرَضُ إسنادِ الفعْلِ إلى ضميرِ العظَمةِ ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾:

العلمُ المُوحى إلى يعقوبَ وأنبياءِ اللهِ، عِلْمٌ عظيمٌ من ربٍّ عظيمٍ

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ (علَّم)؛ أي: التّعليم إلى اللّه، مُعبِّرًا عنه بضمير العظَمةِ، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾؛ تأكيدًا على جلالةِ شأنِ يعقوبَ ﷺ، واتّصافِه بالعلمِ الفائقِ لمطابقةِ قولِه معتقدَه وعلوَّ مرتبتِه، وفخامتِه في هذا العلم[3]، وتكريمًا للعلم الّذي أوحاه إلى أنبيائه، بما يحملُ النّاسَ على تعظيمِ هذا العلْمِ والعملِ به.

دَلالةُ الواو في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الواوُ بين الحاليّةِ والعاطفةِ، وأثرُها في الدّلالةِ

تحتملُ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معنيَيْن:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/167، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/163.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/390، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.

الأوّلُ: عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾[1]، وهذه الواوُ أكّدتِ المعنى المشتركَ بين الجُملتيْن؛ وهو أنّ هناك قلّةً يعلَمون علمَ يعقوبَ، ولكنّ التّغايُرَ يكمنُ فيما أضافتْه من أنّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمون هذا العلْمَ الّذي أعطاه اللّه لأنبيائِه وأصفيائِه منَ العلمِ والمعرفةِ وحُسنِ التّأتّي للأمور[2].

الثّاني: حاليةٌ[3]، والمعنى: إنّ يعقوبَ لذو علمٍ لِما علّمناه حالَ كونِ أكثرِ النّاسِ لا يعلمون.

غرَضُ ختْمِ الآية بالجملةِ الاسميّةِ:

خَتَمَ البيانُ القرآنيُّ الآيةَ الّتي قرّرت وأكّدتْ رسوخَ علْمِ يعقوبَ عليه السلام، ومنه علْمُه بأنّ قضاءَ اللّه نافذٌ لا مَردَّ له، مع وجوبِ الأخذِ بالأسباب؛ ختمَ بجملةٍ اسميّةٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادة ثباتِ الحُكمِ الّذي تضمّنَتْه وقوّتْه؛ وهو أنّ أكثرَ النّاس لا يعلَمون هذه الحقيقةَ الّتي علّمها يعقوبَ، فهُم بين إنسانٍ يعمل غيرَ ناظرٍ أبدًا إلى ما للّه من سلطان فيما يعملُ، وإنسانٍ لا يعملُ شيئًا، مُستسلمًا لِما يأتي به القَدَرُ، وكلا الطّرفيْن جائرٌ بعيدٌ عنِ الطريق السّويِّ المستقيم[4]، أو لا يعلمون ما أعطاه اللّه لأنبيائِه وأصفيائِه منَ العلمِ والمعرفةِ وحُسنِ التّأتّي للأمور[5]، أو لم ينتفعوا بما علِموا[6].

النّاسُ بين مَن لا يرى لله سُلطانًا، وبين مُستسلمٍ للقَدَرِ دونَ عملٍ

بلاغةُ التّعريضِ في تذييل الآية:

يُفهمُ من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تعريضٌ بأنَّ يعقوبَ منَ القليلِ منَ النّاسِ الّذين علِموا مراعاةَ الأمريْن؛

مزيدٌ منَ التّأكيد في الثّناءِ على يعقوبَ وعلْمِه

(1) محمد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/42.
(2) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/393.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/25.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/22.
(5) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/393.
(6) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 6/264.

وهما الأخذُ بأسباب الاحتياط والنّصيحةِ مع علمِه بأنّ ذلك لا يُغني عنهم منَ اللّه من شيءٍ قدّره لهم؛ ليتقرّرَ الثّناءُ عليه باستفادتِه منَ الكلام مرّتيْن؛ مرّةً بالصّراحة في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ ومرّةً بالاستدراك[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بأفعلِ التّفضيلِ ﴿أَكۡثَرَ﴾:

الاستسلامُ لقدَرِ اللهِ مع السّعْيِ يـغْـفـلُ عـنـه كثيرون

عبّرَ القرآنُ باسْمِ التّفضيلِ ﴿أَكۡثَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والتّفضيلُ على بابه؛ باعتبارِ أنّ الرّضا بالقضاء والقدرِ والعلْمَ بثوابِ الصّبرِ عليه والرّضا به متفاوتٌ بين النّاس، ولذا نسَبَه اللّه إلى القليلِ ومنهم يعقوبُ ﷺ، ونفاهُ عن أكثرِ النّاس، وفي هذا إشارةٌ إلى تعظيمِ هذا العلم، وأنّه علمٌ جليلٌ دقيقٌ يختصُّ بالعُظماءِ منَ الأنبياءِ والمُرسلين وصالحِ المؤمنين، وأنّ أكثرَ عقولِ البشرِ قاصرةٌ عن إدراكه، جاهلةٌ عن إمعانِ حقيقتِه، إلّا مَن وفّقه اللّه تعالى، واختصّه به[2]، فأكثرُ النّاس فيه بين طرفَيْن كلاهما جائرٌ بعيدٌ عنِ الطّريقِ السّويّ المستقيم؛ فهُم بين إنسانٍ يعملُ غيرَ ناظرٍ أبدًا إلى ما للّه من سُلطانٍ فيما يعملُ، وبين إنسانٍ لا يعملُ شيئًا، مُستسلمًا لِما يأتي به القَدرُ[3]، وإذا كان المُرادُ بـ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المشركين[4] فيكونُ التّفضيل بذلك بين الأنبياء والمؤمنين الّذين يعلمون هذه الحقائقَ الإيمانيّةَ من أنبيائِهم وبين المشركين الّذين يُنكرونَها ولا يعلَمون ما ألهمَ اللّه أولياءَه[5].

غرَضُ الإضافة في قوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

التّحريضُ على طلَبِ العلمِ، والتّنفيرُ منَ الجهْلِ به

إضافةُ ﴿أَكۡثَرَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، إضافةٌ بيانيّةٌ؛ لأنّه لا تتعيّنُ المفاضلةُ إلّا بذِكْر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/390.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/22.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/50.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/32.

المفضولِ، وهذه الإضافةُ توميُ بالتّحريض على طلبِ العلمِ والتّنفيرِ منَ الجهلِ به.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُسنَدِ جملةً فعليّةً منفيّةً:

نفيُ العلْمِ عن أكثرِ النّاسِ، أمرٌ مُستمرٌّ مُتجدّدٌ، والعلماءُ قلّةٌ في النّاسِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالخبرِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جملةً فعليّةً منفيّةً؛ لإفادةِ تقويةِ الحُكمِ؛ وهو عدمُ علْمِ أكثرِ النّاس بما علِمَه نبيُّ اللّه يعقوبُ وتوكيدِه، وقصدِ الاستمرارِ التّجدّديّ، بسبب تَكرار الإسناد؛ فقد وقعَ الفعلُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ خبرًا عنِ المُسنَدِ إليه؛ وهو الاسمُ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، وهذا الفعلُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في الوقت نفسِه مُسنَدٌ إلى الضّمير (واو الجماعة) العائدِ على المبتدأ، فكأنّ الحُكمَ هنا ذُكر مرّتيْن؛ مرّةً حين أُسند الفعلُ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسندَ إلى ضميره العائدِ إلى المبتدأ، بخلافِ إنْ تأخّر المُسنَدُ إليه، فقال: (لا يعلم أكثر النّاس)، فلا يحدثُ هذا التّكرارُ، بل يحدثُ الإسنادُ مرّةً واحدةً فقط. وأتى الفعلُ في جملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لإفادة الاستمرار التّجدّديّ، ويترتّبُ على هذيْن الأمريْن أنّ نفيَ العلْمِ عن أكثرِ النّاس أمرٌ ثابتٌ دائمٌ ومستمرٌّ مُتجدّدٌ.

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

الحذْفُ اختصارٌ بليغٌ، له ملْمحٌ في البيانِ وثيقٌ

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأمريْن: **الأوّل**: دلالةُ السّياق عليه من قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾، والتّقديرُ: أنَّ أكثرَ النّاس لا تعلمُ العلْمَ الّذي علّمناه ليعقوبَ.

والثّاني: إفادةُ العموم، فيشملُ ما يجهلُه أكثرُ النّاس، ولهذا ذكرَ المُفسّرون عدّةَ تفاسيرَ لمفعولِ يعلمون المُقدَّرِ، منها: لا يعلمون أسرارَ القَدَر، ويَزعمون أنَّ الحذرَ يُغني عنِ القدر، أو لا يعلمون أنّ الواجبَ الجمعُ بين أخذِ العُدّةِ والسّعي في تحقيقِ الأسبابِ الصّحيحةِ

المُوصلةِ إلى المُرادِ، وبين الاتّكال على الله؛ وهو ما فعلَه يعقوبُ ﷺ؟ أو لا يعلمون أنَّ يعقوبَ ﷺ بهذه الصّفةِ والعلْمِ؟ أو لا يعلَمون ما كانَ يعلمُ يعقوبُ؟ لأنّهم لم يَسْلكوا طريقَ إصابةِ العلْمِ، أو لا يعلمُ المشركون ما ألهمَ الله أولياءَه؟[1].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/241، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/21، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/32.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»